في معترك تحقيق «الذاتية» بين "الشعوبية" والتيار القومي ١٠٧ مطارحة، مناقشة

بقلم الدكتور/ فتحي محمد أبو عيسى
عميد الكلية

غنى عن البيان أن العربى الجاهلى كان ذا اعتداد بالنعرة القبلية التى ملأت كيانه ، وأجرت على « لهاته » نغما مرنا يعم الدنيا صداه ، أو لا ترى الى قول « القطامى » :

وكن اذا أغرن على جنـاب

وأعـوزهن نهب حيث كانا

أغرن منالضباب على حلول

وضبة انه من حان حانا

وأحيانا على بكر أخينهـا

اذا ما لم نجد الا أخانا (١)

ومن الطبعى أن هذا السعار المجنون في العصـــبية للقبيلة ترك بصماته الواضحة في مجالات الحياة العربية الجاهلية ، الى أن كانت توجيهات الاسلام ، حينئذ أعاد القرآن الكريم والسنة النبوية التوازن الى تلك الحياة الطائشة ، وأصـــبح معـــلوما - آنذاك - أن الامة الاسلامية أمة واحدة ، يتساوى أفرادها في الحقوق تحت راية الاسلام ، وليس ثمة امتياز لفرد فيها من دون الاخرين ، اللهم الا من معايير التقوى،والقرب من الله عز وجل..

---

(١) ديوان الحماسة للتبريزى ١/٨٢ ط بولاق .

وآيات القرآن ، وأحاديث المصطفى يزخـــران بعديد من النصوص في هذا المضمار نسوق منها ـ للمثال لا الحصر ـ قوله تعالى من سورة « الحجرات » :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنـــاكم شعوبا وقبائل لتعارافوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » (١) ٠

وقوله تقدست ذاته من سورة (سبأ) :

« وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، الا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم في الغرفات آمنون » (٢) ٠

وكأنى بالآية الكريمة الاخيرة تريد أن تهدم المقاييس التى يمكن أن تسود في وقت من الاوقات ، فتكون أساسا للتمايز لدى بعض الاعراف والمجتمعات ٠

كما نذكر كذلك من أحاديث النبى صلى الله عليـه وسلم قوله الذى أثر في حجة الوداع : « أيا الناس : ان ربكم واحد وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عنـــد الله أتقاكم ان الله عليم خبير ، وليس لعربى على عجمى فضـــل الا بالتقوى » (٣) ٠

كانت هذه التوجيهات الرائعة بلسما شافيا ، ضمد الجروح الناغرة التى أدمتها العصبية للقبيلة في مجتمـــع الجاهليين ، وعاش المسلمون في ظلالها ينصون بالاخوة الحانية ويشـــعرون

---

(١) آية ١٣ (٢) آية ٣٧ (٣) البيان والتبيين ٢/٣٣ ط : ٤ (الخانجى) ٠

بالحب الدافق والمودة الكريمة ، والمبرة الرحيمة ، حتى اذا كانت الحروب التى قامت بين بعض الطوائف الاسلامية في عهد « على ابن أبى طالب » كرم الله وجهه اقتتل المسلمون آنذاك باسم العصبية التى تمكنت من نفوسهم ، والسطوة التى بسطت سلطانها عليهم ، وكأنما نسي الافراد المصطرعون ماكان للاسلام عليهم من اليد الطولى في رأب الصدع ووحدة الكلمة ، واتفاق الهدف والغاية ..... وحينئذ عادت العصبية القبلية سيرتها الاولى ، ثم اشتعل أوارها ، واحتدم لظاها باستمرار الحرب ، وتجدد الفتن ، واستتبع ذلك أن يعيش الموالى ممن دخلوا في الاسلام ـ تحت وطأة هذه النزعات ـ منبوذين مقهورين مطحونين ، ومن ذلك الوقت شعروا بالغصة تملأ نفوسهم . اذ كيف تستحيل تعاليم الاسلام السمحة في المعاملة ضروبا من القسر ، وألوانا من الاضطهاد !!

« واذا كان (سحيم) عبد بنى الحسحاس » قد غاضت نفسه بالمرارة ، وهو يعيش في ظل الخليفة العادل ، عمر بن الخطاب » ، فقال في قصيدته اليائية التى أنشدها بين يدى « عمر » :

أشارت بمدارها وقالت لتربها
أعبد بنى الحسحاس يزجى القوافيا !!
رأت قتبا رثا وسحق عباءة
وأسود مما يملك الناس عاريا
يرجلن أقواما ويتركن لمتى
وذاك هوان ظاهر قد بداليا

فلو كنت وردا لـــونه لمعشـــقتنى
ولـــكن ربى شـــاننى بســـواديا

أقول اذا كان شعر « سحيم » قد نضح بالمرارة في عهد أمير المؤمنين « عمر بن الخطلب » فكيف بالمرالى من الفـرس الذين أسلموا ، وفرض عليهم الولاء ،وخضعوا لاضطهاد مرير من الدولة الاموية ؟ ولم يكونوا عبيدا أرقاء كسحيم ، ولا كانوا من أصـل مغمور ومنبت وضيع » (١) ٠

وربما كان شعر النقائض في عصر (بنى أمية) انعكاسـا أو رد فعل لتلك العصبية القبلية وفي سبيلها لم يألُ الشـــعراء جهدا في الانتصار لهذه العصبية بألوان من الاساليب ، قد يخرج فيها عن نطاق الجادة ، ودائرة الحياء ، أولا ترى الى (جـرير) ما يزال بالاخطل حتى يسقط » تغلبا « في صورته ، مستعينا في ذلك بعناصر شتى تلتقى جميعها حول معنى واحد : الازراء على « تغلب » ، واسقاطها الى مهاوى الوضاعة والخسف ٠٠٠٠٠٠

يقول « جرير » :

أليس أبو الاخيطل تغلبيا
فبئس التغلبى أبا وخالا
اذا ما كان خالك تغلبيا
فبادل ان وجدت به بدالا
ويربوع تحل ذرا الروابى
وتبنى فوقها عمدا طوالا
أبعل التغلبية لا تطأها
فلا دينا أصبت ولا جمالا

---

(١) قيم جديدة للادب العربى ١١١ د٠ بنت الشـــاطىء (دار المعارف) ٠

وقد علق الاخيطل حبل سوء
فأبرح يومهن به وطالا
ألم تريا أخيطلَ حرب قيس
تمر اذا ابتغيت لها العلالا (١)

في أتون العصبية للقبيلة ووسط سعيرها الملتهب ، ونارها اللافحة عاش الموالى يجترون الاسي ، ويمضغون المرارة ، يرجون ـ بجدع الانف ـ أن تعود لهم حقوقهم السليبة في عصر « بنى أمية » ، وشاء الله أن يكون عهد (عمر بن العـــزيز) خامس الراشدين على قصره انصافا لهم ، ودفاعا عن رغـــائبهم المشروعة ، فلما انقضي عهد (عمر) ارتد الموالى الى ما كانوا عليه من ذى قبلُ من مظالم بشعة ، مما كان سببا في اصطفائهم على العرب ، أو بعبارة أدق على الدولة الاموية ، فشـــاركوا الخوارج والشيعة في الثورة عليها ، وأخذ فـريق منهم يمتلهم (اسماعيلُ بن يسار النسائى) يفاخر العرب بحضـــارة أمته الفارسية ، وملوكها الساسانيين الذين غلبوا على الارض وعظم حقد الموالى على الدولة وملأت الحفيظة والموجدة صـــدورهم ، والتفت منهم جماعات كثيرة حولُ (أبى مسلم)داعيةالعباسيين بخراسان ،وما لبثوا أنزحفوا فيجيش ضخم أدالوا به للعباسيين من الامويين ، والفرس من العرب ادالة نفذوا في أثنـــائها الى مناصب الدولة العباسية العليا بحيث كان منهم أكثر القواد ، وأكثر الولاة ، وخاصة حين استوالى على أزمة الحكم البرامكة في عهد « الرشيد » و « بنو سهل » في عهد « المأمون » ...

---

(١) ديوان « جرير » المجلد الثانى ٢/٧٥١ لتحقيق د٠محمد نعمان طه (دار المعارف) ٠

وكان هذا التحول الخطير في مقاليد الحكم،وما أصبح للفرس من مكانة رفيعة سببا في بروز نزعة (الشعوبية) نسبة الى (الشعوب الاعجمية) (١) ٠

والذى لا شك فيه أن تلك الحياة القبلية المتناحرة التى أطاحت بكبرياء الموالى وأمجادهم لا تفتق لسان « اسماعيل بن يسار النسائى » وحده بالشعر الذى يضائل من العرب في مواجهة الفرس عند المقارنة ، على نحو ما عرف عنه من قوله :

رب خال متوج لى وعم
ماجد مجتدى كريم النصاب
انما سمى الفوارس بالفر
س مضاهاة رفعة الانساب

بل تفتق ألسنة كثير من الموالى ، يضربون على هذا الوتر ٠٠٠

ومن هنا فلسنا نوافق أستاذنا الدكتور (شوقى ضيف) على ما رآه في شعر « اسماعيل بن يسار » من أنه ظاهرة شاذة في هذا العصر (٢) ، ودليلنا على ذلك ما يأتى :

(أ) ان هؤلاء الموالى كانوا على حداثة عهد بالاسلام ، ومن الطبيعى أن تكون الحياة التى عاشوها في عهد بنى أمية مدعاة الى اهتزاز القيم والمبادىء في نفوسهم ، لا سيما وقد امتلأت جورا وظلما ، وتناحرا واغتصابا وكل هذا من شأنه أن يهز في نفوسهم ما أشربوه من ولاء للاسلام وتعاليمه ٠

---

(١) تاريخ الادب العربى العصر العباسي الاول ٧٤ ومابعدها د٠ شوقى ضيف ط : ٧ ٠

(٢) أنظر تاريخ الادب العربى - العصر الاسلامى ٢١٣ د٠ شوقى ضيف ٠

(ب) أن الموازنة بين « اسماعيل بن يسار » في شـــعره الذى يرد به على العرب وشاعر أخر مثل « نصيب » دولى « عبد العزيز بن مروان » الذى أنشد « سليمان بن عبد الملك » أبياتا في مدحه ، يقول فيها :

أقول لركب صادرين لقيتهم
قفا ذات أو شـال ومولاك قارب

قفوا خبرونى عن سليمان اننى
لمعروفة من أهل ودان طالب

فعاجـوا فأثنوا بالذى أنت أهله
ولو سكتوا أثنت عليـــك الحقائب

فقال له « سليمان » : أحسنت ، وأمر له بصلة ، ولم يصل الفرزدق (وقد أنشده أبياتا في مدحه) ، فخرج « الفـــرزدق » غاضبا ، وهو يقول :

وخير الشعر أكرمه رجالا
وشر الشعر ما قال العبيـد

واذا كان (نصيب) قد انتزع اعجاب (سليمان بن عبـــد الملك) بهذه الابيات المـادحة فان (ابن قتيبـــة) يأبى الا أن يشيد ببعض مختارات من شعره المادح ، ومن ذلك ما قاله في مـولاه :

لعبـــد العزيز على قومه
وغـيرهم منـــن غـــامره

فبـــــابك ألـين أبوابهم
ودارك مأهـــــولة عامره

وقلبـك آنس بالمعتقـــين
من الام بابنتهـا الزائرة

وكفك حين ترى السـائا
بين أندى من الليلة الماطره
فمنك العطاء ومنك الثناء
بكل محبرة سـائره (١)

هذه الموازنة تستوقفنا حين نرى شاعرا كنصيب ومن على شاكلته من شعراء المدح البلاطى تستفيض الكتب بأشعارهم بينما ينزوى (اسماعيل بن يسار) ومن ماثله في أشعارهم فاذا شعرهم نتف يسيرة ، أليس ذلك مما يستدعى تساؤلا لمعرفة السبب !!

لقد فطنت الدكتورة « بنت الشاطىء » للوقوف على الحقيقة حين ذكرت :

« ضاع شعر الموالى أو صودر ، ولم يضع شعر « نصيب » لانه كان من شعراء الحـزب الزبيرى « عبيـد الله بن قيس الرقيات » ، لانه تنكر لما فيه ، وتعلق بركاب « عبـد الله بن مروان » قاتل « مصعب » كما اشتهر من شعراء الشيعة (الكميت الاسدى) ، لانه طوى هاشمياته وأقبل على مراء القصر الاموى، يمحو بمدائحه فيهم هاشمياته في الامام « على » وبنيه ، ولو لم تتصل أسباب هؤلاء الشعراء بالقصر الاموى لكانوا مظنـة أن يوضعوا في منطقة الظل » (١) .

فليس شعر (اسماعيل بن يسار) الذى تغنى فيه بالفرس وفاخر بحضارتهم خلاله ظاهرة شاذة اذ لو قدر لشعره ونظرائه أن يصل الينا لكانت الدندنة بمثل هذه النغمات ، والمعالنة بها أمرا عاديا .

---

(١) الشعر والشعراء ١/٤١١ وما بعدها تحقيق الاسـتاذ (أحمد محمد شاكر) .
(١) قيم جديدة ١٢٢ .

(ج) ولا يتنافي ذلك مع بعض ما قرره الدكتور (شـوقى ضيف) من أن هناك من شعرائهم من افتخر بأمه الاعجمية من أمثال (أبى نخيلة) الذى قال :

أنا ابن سعد وتوسطت العجم فأنا فيا شيت من خال وعم (١)

ذلك أن محاجتنا للدكتور (شـوقى ضيف) انما تتعلق بالشذوذ الذى خلعه على (اسماعيل بن يسار) وشعره الـذى نمذجنا به آنفا لا أكثر ٠

(د) وقد يعزز وجهتنا التى ارتضيناها في ذلك أن ولـأة الحكم وقيود السياسة لم تكن لتجيز لاسماعيل بن يسار وفريقه أن يذيعوا في الناس هذه المانى ، وكلها تطاول ومناواة للعهـد القابض على السلطة ، وربما كان ذلك بعينه ما جعلهم يختزنون هذه المعانى ، فبقيت حبيسة الجوانح ، تدمدم في أعماقهم ، وتهجس في خواطرهم دون أن يهتكوا أستارها ، ويفضـحوا أسرارها ٠٠٠

والحق أن الشعوبية بدأت تغتنم الفرص لتقوية شوكتها ، واسترداد ما ضاع منها فكانوا من ذلك طرائق قددا ٠٠ ، ففريق كل وكده أن يتحلى باسم التسوية على حد تعبير « الجاحظ » ، يريد أن يحظى بما يحظى به العرب أنفسهم دون ما استعلاء أو فوقية واعتداد ٠

وقد تحدث (الجاحظ) عن هذا الفريق ، وكشف عن مطاعنهم التى وجهوها الى خطباء العرب : « يأخذ المقصرة عند مناقلة الكلام ، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى ، والمنثور الذى لم يقف ، بالاجازة عند المتح ، وعند مجاثاة الخصم ، وأخذ العهد

---

(١) تاريخ الادب في العصر الاسلامى ٢١٤ ، وانظر البيان والتبيين ٣/٢٢٥ ٠

المؤكد ، واليمين الغموس ... الى آخر هذه المعانى (١) .

وينتقل الجاحظ ، ليشير الى فريق آخر يمثل القمة ، لاينظر من حالق الى السفح الذى يمثله لعرب ، فهو متعصب :

قالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمية : القضيب للايقاع، والقناة للبقار ، والعصا للقتال والقوس للرمى وليس بين الكلام وبين العصا سبب ، ولا بينه وبين القوس نسب ، وهما الى أن يشغلا العقل ، ويصرفا الخواطر ، ويعترضا على الذهن أشبه (٢)

وينثنى من ذلك كله الى القول بأنه ليس هناك قوم «أشقى من هؤلاء الشعوبية » ، ولا أعدى على دينه ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غما من هذه النحلة وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم وغليان تلك المراجل الفائرة وتتسعر تلك النيران المضطرمة » (٣) .

وليس ينينا أن نسجل آراء (الجاحظ) في الرد على ما أثاروه قدر عنايتنا أن نثبت أنه (أعنى الجاحظ) رصد أفكارهم ، وصور دخائلهم رصد الفلكى للنجوم ....

على أن ضرورة هؤلاء ما لبثت تستفحل يوما بعد يوم ، وأتاح لها ذلك خلفاء بنى العباس الذين فتحوا لهم الباب على مصاريعه ، وتلقوهم بكل بشر وأريحية ، وأحلوهم المكان الارفع والمنزلة السامقة ...

---

(١) راجع : البيان والتبيين ٣/٥ وما بعدها .
(٢) نفسه ٣/١٢ .
(٣) نفسه ٣/٢٩ .

ولم تفتأ الشعوبية لسياستها بتعبئة وجدانية الرأى العام، واحتاجت الى الشعراء صنيعة الموالى من الفرس ....

حدث « بشار » وأصله من فارس عن نفسه : « دخلت على المهدى ، فقال لى : فيمن تعتد يا بشار ؟ فقلت : أما اللسان والزى فعربيان ، وأما الاصل فأعجمى ، كما قلت في شعرى :

ونبئت قـــوما به جنـــة
يقولون : من ذا ؟ وكنت العلم
ألا أيها الســـائلى جاهدا
ليعـــرفنى ، أنا أنف الكرم
نمت في المـــكارم بى عـامر
جدودى ، وأصلى قريش العجم

نعم تبرأ « بشار » ، ولا بد أن كثيرا غيره تبرءوا كذلك من الولاء للعرب بعد أن لم تعد بهم حـــاجة الى هذا الولاء ، ومد لسانه يعير العرب ، ويغض من ماضيهم ، ويذكـرهم بخشـونة بداوتهم في مجلس أحد سادتهم ، يروون أن « أعرابيا دخـــل على « ابن ثور السدوسي » بالبصرة ، و « بشار » في مجلسه ، فسأل الاعرابى : من الرجل ؟ قيل له : شاعر ، فعاد يســـأل : أمولى هو أم عربى ؟ أجابوا : بل : مولى ، فقال الاعـــرابى : ما للموالى والشعر ؟ فسكت « بشار » هنيهة مغضـــبا ، ثم استأذن « ابن ثور » وأنشد :

ســـأخبر فاخر الاعراب عنى
وعنـــه حـــين تأذن بالفخـار
أحين كسيت بعد العرى خزا
ونادمت الكرام على العقـــار

تفاخـــــر يابن راعيـــة وراع
بنـى الاحرار ؟ حسبك من خسار
وكنت اذا ظمئت الى قـراح
شركت الكاب في ولغ الاطار
تريد بخطبـــــة كسر الموالى
وينسيك المكارم صـيد فار (١)

وساعد على استشراء هذه النزعة وتغلغلها أن « الفرس » ـ وقد مكن لهم « بنو العباس » من أن يكونوا العقـل المدبر ، واليدالمتصرفة ـ اشتروا ألسنة الشعراء بالمال والعطاء فتوافدوا عليهم ، وكلهم أمل في الافتنان والاجادة ، وليس لذلك الا سبيل واحدة يتملكونها : أن يتحولوا الى أبواق للدعاية و«الديماجوجية» فاذا سلكوها كان لهم ما أرادوا ... والا فلا ... ومن هنا حفـــل الشعر العربى بكثير من الاماديح وتفاخرهم ...

وان أردت دليلا على ذلك ،فدونك «صريع الغوانى» الذى قال من قصيدة له ، مدح فيها « الفضل بن جعفر بن خالد بن برمك » :

فتى ترتعى الآمالُ مزنة جـــوده
اذا كان مرعاها الامانى والبطلُ
تساقط يمناه ندى وشـــماله
ردى وعيون القول منطقه الفضل
ألح على الايام يفرى خطوبها
على منهج ألفى أباه به قبـــل
عجول الى ما يودع الحمد ماله
يعد الندى غنما اذا اغتنم البخلُ

---

(١) قيم جديدة وطالع القصيدة في ديوان (بشار)٣/٢٢٩ ـ ٢٣٢ نشر محمد الطاهر بن عاشور ط : لجنة التأليف ١٩٥٧ .

كأن نعم في فيه يجـرى مكانها
سلالة ما مجت لافراخها النحل(١)

وتأمل كذلك قول « مروان بن أبى حفصة » في « الفضل بن يحيى » حين شخص واليا على « خراسان » :

ان الجواد ابن يحيى الفضل لا ورق
يبقى على جـــود كفيه ولا ذهب
ما مر يوم له مذ شـــــد مئزره
الا تمـــول أقـوام بما يهب
كم غاية في الندى والبأس أحرزها
للطـالبين مداها دونهـــا تعب
قد فاض عرفك حتى ما يعـــادله
غيث مغيث ولا بحر له حدب (٢)

وهكذا استطاع «الفرس»أن يمسكوا مقادة هؤلاء المادحين، يوجهونها لنشر محامدهم واذاعة مكارهم على نحو يرضي فيهم هذه النزعة من جهة ، وعملا على اطفاء الوهج الذى أضـــفاه الشعراء على العرب يوم كانت مقاليد الامور تصرفها « بنـــو أميـــة » ...

وربما تجسدت خطورة تلك النزعة الشـــعوبية ، بعد أن استطار شروها في التشكيك بالاسلام والغض من لسانه : « لغة الضاد » ، وفي هذا يذكر « الجاحظ » :

---

(١) شرح ديوان صريح الغوانى ٢٦٣ تحقيـــق وتعليـق د. سامى الدهان ط : ٢ (دار المعارف) .
(٢) شعر مروان بن أبى حفصة ١٨ وما بعدها جمع وتحقيق د. حسين عطوان (دار المعارف) .

« ان عامة من ارتاب بالاســـــلام انما كان أول ذلك رأى الشعوبية ، والتمادى فيه ، وطول الجدال المؤدى الى القتـــال ، فاذا أبغض شيئا أبغض أهله وان أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، واذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسـلام ، اذ كانت العرب هى التى جاءت به ، وكانوا السلف والقدوة » (١) ٠

وحول هذا الهدف وتلك الغاية التف شعراؤهم ينفثون السم الزعاف ، حتى ليفيض شعرهم بعديد من القصائد تنبىء عن هذا الاتجاه ٠٠ ولعل مما يوضح ذلك قصيدة (أبى نواس) في هجاء (أبان اللاحقى) وفيها يقول :

جالست يومـــا أبانا ... لا دردر أبـــــان
ونحن حضر رواق الـــ ... أمـير بالنهـــــروان
حتى اذا ما صلا الا ... ولى أتـــــت لاذان
فقـــام ثم بها ذو ... فصـــاحة وبيـــان
فـــكل ما قال فننـــا ... الى انقضـــاء الاذان
فقال : كيف شـهدتم ... بذا بغـــير عيـــان ؟
لا أشهد الدهر حتى ... تعـــاين العينـــان
فقلت : سـبحان ربى ... فقـال : سبحان مانى
فقلت : عيسي رسـول ... فقـال : من شـــيطان
فقلت : موسي كليم الـ ... ـمهيمن المتـــــان
فقال : ربك ذو مقـــــ ... ـالة اذن ولســـــان
فنفســـه خلقتـــه ... أم من ؟ فقمت مكانى
عن كافـــر يتمـــرى ... بالكفـــر بالرحمـــان

---

(١) الحيوان : ٧/٢٢٠ تحقيق وشرح الاستاذ عبد السـلام هارون ، ط (الثانية) الحلبى ٠

يريد أن يتضـــوى بالعصـــبة المجـــان
بعجـــرد وعيـــاد والوالبى الهجـــان
وقاســـم ومطيـــع ريحانة الندمان (١)

واذا نقلت الينا هذه الصورة الشعرية أطرافا مما كان يجرى على مسرح الصر ، وتموج به الحياة ، فان صورا عديدة أخرى من الشعر تحذو الحذو عينه ، وتنسج على منواله ....

وهذا (أبو قابوس النصرانى) يكتب الى « أبى نواس » كلمات مرة ، يصف أحـــد المجالس الماجنة التى أخطـــأته فلم يحضـــره :

فديتك يا نواسي اصطبحنا
بكبـرة وبلبله وطـــاس
فما كانت صلاة الظهر حتى
تلقفنـــا بأثواب النعـاس
توسد بعضـنا أفخاذ بعض
وظلنا في اختلاط والتباس

ويتحسر « أبو نواس » على ضياع تلك الفرصة ، ويجيبـــه بقـــوله :

قـد وقفتم لخـــلال ظرف
خـــلا اخـــلالكم بأبى نواس
فهلا ان عزمت على اصـطباح
وقدما كان ذلك من التماسي
ذكرت خلاعتى ومســاعداتى
ولم تك غافلا عنى كناسي

---

(١) الاوراق للطولى ١١ جمع : هيوارث دن .

أبا قابوس جـــددلى صبوحا
على مرد ، ومسمعة وكاس (١)

وليس أصرح من هذه الصور في الكشف عن شـــعوبية تلك العصبة ومجانتها ... ومع ذلك فان (أبا عمرو بن العلاء) يذهب الى أن (أكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية) (٢) ، وهـو قول يرتطم مع الواقع ، وتقوى الوقائع على تكذيبه ومناهضته، فالثابت أن الزنادقة قطعوا في مضمارهم شوطا بعيد المدىنتيجة لما داخلهم من ريبة في دين الفاتحين ، وليس عنجهل بالعربية..

ولقد كان من وطأة « الشعوبية » عـــلى « أبى نواس » ان انعكست في شعره بمظاهر متعددة وألوان شتى وكأنها طيفهالذى لا يزايله فيما يعن له من قول ، والا ففيم قوله لاحمد بن أبىصالح المعروف بأحمد المرتجى :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

وفيم قوله كذلك :

تعـــلل بالمنى اذا أنت حى
وبعد الموت من لبن وخمر
حيـــاة ثم موت ثم بعث
حديث خرافة يا أم عمرو

ثم علام كان موقف « الرشيد » منه ، وهو الذى أمر بقتله هولا « الامين » ، حين قال له : يابن اللخناء أنت المستخف بعصا « موسي » نبى الله اذ تقول :

---

(١) ديوان « أبى نواس » ٥٤ تحقيق ايفالد فافنز ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨ .
(٢) نزهة الالباء في طبقات الادباء (لابن الانبـــارى) ٢٥ تحقيق « محمد أبو الضل ابراهيم » - دار نهضة مصر .

فان يك باقى ســـحر فرعون فيكم
فان عصا « موسي » بكف خصيب (١)

أليست هذه الصور التى أجراها على لسانه الا اطعانا عـلى الدين والعقندة ، وتشكيكا في الغيبيات ، واعتبارمها خـرافة ، وتهجما على الاديان السابقة ، حتى ليبدو (أبو نواس) فيهـا نهازا للفرصة ، ينفذ الى أغراضه الخبيثة بشتى الوسائل ... على أنه في ذلك يمثل عصره ، فبمقياس (حساسية العصر نرى أن أحدا لم يصور عصره كما صوره (أبو نواس) ، وأن أحدا لم يخدم « الشعوبية » كما خدمها هذا الشاعر) (٣) .

واذا أبدت شعوبيته في اطار الاديان والعقيدة ، فقد أضاف الى ذلك أطرا أخرى ، يتحول فيها الفن عنده الى اعـــلان عن شـعوبيته .. وانظر قوله :

راح الشقى عـــلى الربوع يهيم
والراح في راحى فرحت أهيم
بمزمزين عدوا بسدفة ليلة
والليل ملتبس الظـــلام بهيم

هذه الثورة على القديم مردها الى أنه يؤثر الفـــرس على العرب ، مما حدا به الى أن يسلك مسلكا آخر قد يوهم بالفنية ، غير أن شعوبيته تتدسس اليه وتخلفه .

ويتجلى لمن يدرس «الشعوبية» بأناة أن ثمة نزعة شعوبية متطرفة ، وهؤلاء فئات ثلاث كما يذكر المرحوم « أحمد أمين » :

(أ) من بقى على دينه القديم .

---

(١) أنظر : الشعر والشعراء ٨٠٧/٣ وما يليها .
(٢) الحياة الادبية في البصرة الى نهاية القرن الثانى ٤٨٦ د. أحمد كمال زكى (دار المعارف) .

(ب) من أسلم ولما يدخل الايمان قلبه ٠

(ج) من طغت عليه نزعته الوطنية ، فاحتدم صدره حقدا وموجدة على العرب لانهم أزالوا ملكهم وأضاعوا استقلالهم (١) ٠

ومن هنا انعقدت الاواصر بين « الشعوبية » و « الزندقة » ٠

ويذكر « جرجى زيدان » في معرض حديثه عن دوجة الشك والزندقة في هذا العصر (العصر العباسي الاول) فيقول :

ظهرت طائفة جاهروا بالزندقة ، وفيهم جماعة كبيره من الادباء والشعراء ، وأشهرهم : « حماد عجرد » ، « حفص بن أبى وردة » ، « ابن المقفع » ، « يونس بن أبى فروة » ، « على بن الخليل » ، « حماد الراوية » ، «ابن الزبرقان» ، «بشار بن برد»، و « صالح بن عبد القدوس » ، « ابان اللاحقى » ، « وعمارة بن حمزة » ، « يزيد بن الفيض » ، « جمبل بن محفوظ » ، وكانوا يجتمعون على الشراب يتناوبون ويقولون الشعر ، ولا يكادون يفترقون ، ويهجو بعضهم بعضا هزلا وجدا ، وكثيرا مما كانوا يشتركون في أموالهم وأحوالهم كما يفعل الاشتراكيون اليوم ، فكان « مطيع بن اياس » ، « يحيى بن زيد الحارثى » ، «ابن المقفع » و « والبة بن الحباب » يتنادمون ولا يفترقون،ولايستأثر أحدهم على صاحبه بمال ولا ملك ، وكانوا جميعا يمرون بالزندقة ٠٠٠٠ وذكروا أن (مطيع بن اياس) مر بيحيى بن زياد ، « حماد الراوية » وهما يتحادثان ، فقال لهما : فيم أنتما ؟ قالا : في قذف المحصنات ٠٠ قال : « أوفي الارض محصنة تقذفانها » (٢) ٠

وتمخض هذا الجو الذى بذرت فيه « الشعوبية » بذرتها عن كتابات تطفح حقدا ومرارة ومثلبة على العرب ؛ ومن تلك

---

(١) أنظر : ضحى الاسلام ٥١/١ (دار المعارف) ٠
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٤٩/٢ ـ دار الهلال ٠

الكتابات : كتاب « المثالب » لزياد بن أبيه ، وكذلك صنع « أبو عبيدة » ـ وكان أبوه يهوديا ـ كتابا في مثالب العرب ، ومنهـا كتاب « الميدان »لمؤلفه علان الشعوبى الفارسي ، ذاك الذى أجازه عليه « طاهر بء الحسين » بثلاثين ألف درهم ٠٠٠٠

ولم يقف العلماء والمفكرون العرب ازاء هذه الحملة العنيفة القاسية على العرب مكتوفي الايدى ، بل شرعوا أسلات أقلامهم في وجه هذه « الشعوبية » الخبيثة ، وكان أن خف لمناهضـــتهم « الجاحظ » يمقت من فكر موسوعى ، وقلم شائق ، يقطر لذعا وسخرية ، ويشاركه كذلك من اللامعين « ابن قتيبة » ٠٠

ويبدو أن العرب عمدوا « عندما استطاع الاعاجم ترجيـح الكفة نحوهم في القرن الثالث ـ الى شن هجوم معاكس بقيـادة كتاب أشهرهم « الجاحظ » ، « ابن قتيبـــة » ٠٠ ويظهـــر أن الشعوبيين كانوا البادئين في عملية الهجوم التى قادوها ببراعة، مما اقتضي أن يكون رد الفعل على يد شـخصيات ذات مواهب عليـا » (١) ٠

وقد يثير العجب أن نرى (الجاحظ) ينصب من نفسه مدرها يدافع عن العرب وأمجادهم ، وذلك بما اصـطنعه لنفســه من أدوات ذات براعة ومقدرة ، وأظن أننا على دكر ن النهج الذى سار عليه في الرد على زاعمهم ٠٠٠

ولكن مناط الغرابة حقا أن نجد كتابا كاملا للجاحظ (كتاب البخلاء) يشكل دفاعا عريضا وردا على الشعوبية وهو ما يشير اليه الدكتور (طه الحاجرى) بقوله عن كتاب « البخلاء » : ان وراءه عاملين على جانب كبير من الاهمية والخطورة :

---

(١) الجاحظ ٣١٢ : د٠ شارل بلات ٠ ترجمة د٠ ابراهيـــم الكيـــلانى ـ دمشق ٠

أولهما : الخصومة السياسية بين الامويين والعباسيين حيث أخذ كل منهما ينافس الاخر في ترويج مثالبه ونقائصه ولو في صورة مختلفة مفتعلة ، وكان « البخل » احدى هذه النقائص ...

وثانيهما : ما كان يسود الجو حينئذ من نزعة شعوبية راحت تحقر ما عرف عند العرب من صفات كريمة ، وشمائل عظيمة كالكرم مثلا (٣) .

أولا ترى الى (مروان بن محمد) المعروف بأبى الشمقمق يقول ساخرا بمعاصريه :

ذهب المـوال فـلا موا
ل وقد فجعنا بالعـرب
الا بقـايا أصـبحوا
بالمص من قشـر القصب
بالقـول بذوا حاتمـا
والعقل ريح في القـرب (١)

واذا سل لسانه في هجاء « جعفر بن أبى زهير » لبخله ألفيته لاذعا في الهجاء ، يصوره من الكزازة بحيث لا يستطيع انسان ما أن يصيب من طعامه وشرابه ... يقول :

شرابك في السراب اذا عطشنا
وخبزك عند منقطـع التراب
رأيت الخبز عـز لديك حتى
حسبت الخبز في جو السحاب
وما روحتنـا لتـذب عنـا
ولـكن خفت مرزئة الذباب (٢)

---

(١) شعراء عباسيون ١٣٠ (غوستاف فرنباوم) بيروت .
(٢) نفسـه ١٣١ .

على أن « الشعوبيين » هبوا ، يقفون أنفسهم ـ اضافة الى ما أسلفنا ـ يبعثون العقائد الفارسية ، وأنت لتقرأ في هذا قول « الاصمعى » :

اذا ذكر الشرك في مجلس
أضاءت وجوه بنى برمك
وان تليت عندهم آية
أتوا بالاحاديث عن مزدك

فترى الى أى مدى جند « الشعوبيون » أنفسهم لتحقيق ما يصبون اليه ويودون ... ومن ثم أعلنها « بشار » مدوية تملأ الآفاق :

النار مظلمة والارض مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

بل زعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : و « على » أيضا ، فأنشد :

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصحبينا (١)

كل هذا الغمز الصريح ليس في حقيقته الا دعوة ملحة « صريحة الى دين الشعوبية » والى نبذ قيم الدين الذى حمل لواءه العرب غازين ، ولا بأس من أن يقول الشاعر الفارسي :

أبونا ونيزك وبه أمامى
اذا افتخر المفاخر بالولاده
أبونا ويزك عبد رسول
له شرف الرسالة والزهاده
فمن مثلى اذا افتخرت قروم
وبيتى مثل واسطة القلاده

---

(١) البيان والتبيين ١/١٦ .

فاذا علمنا أن الاقوال تتواتر على أن (ويزك) هواسحاق بن ابراهيم لمسنا ما يستهدفه قول الشاعر ، وهم ـ مهما يكن ـ فلا يرتضون دين محمد في (ايطوبياهم) لان لهم دين « اسحاق » الرسول الزاهد ، ولعل الشاعر ـ بوصف « اسحاق » بالزهد انما كان يريد أن ينال من (محمد) الذى كان يدعو الى الاخذ بمتاع الدنيا أخذه بأسباب الآخرة (١) ٠

ولا خلاف في أن بعث العقائد الفارسية مرتجاهم الذى كانوا يتطلعون اليه لا يمكن أن يؤدى الثمرة المنشودة المبتغاة الا اذا استهدفت اللغة العربية ، وبذا تتحقق الحيلولة بين الاسلام والعودة اليه أو التفكير فيه ٠٠ وكان من الحتم أن يخططوا لانجاح تلك الغاية تخطيطا محكما ، واذا بهم يركبون كل موجة ، أملا منهم في بلوغ ما يريدون ، وليس أدل على ذلك مما حكاه (أبو الفرج الاصفهانى) من أن (اسحاق الموصلى) كتب اليه بعض الامراء العرب يرغب في الشخوص اليه لكى يشرب معه في ملجس :

لعمرى لئن كان الامير تمنانى
بمجلس لذات ، ونزهة بستان
وهل أسمعن ذاك المزاح الذى به
اذا جئته سليت همى وأحزانى
اذا قال لى يأمر دمى خر وكرها
على ، وكنانى مزاحا بصفوانى

ويعلق « أبو الفرج » قائلا : هذا كلام بالفارسية تفسيره : يا رجل اشرب النبيذ (٢) ٠

---

(١) الحياة الادبية في البصرة ٤٣٤ ٠
(٢) الاغانى ٨/٥ ٠

ويقول « ابان اللاحقى » :

يقول العهد في الـــكندو ج يا مولاى ذا أحـد

و « الكندوج » لفظة غير عربية ، وأصلها « الكندو »بمعنى « المخزن » ، وقد عربها الشاعر باضافة الجيم لها ولا يعنى ذلك أن شعرهم كان يحفل كثيرا بمثل هذه الالفاظ والاساليب وانما قصدنا أن نرسم صورة نســـتطيع أن نستشف من ملامحهـــا وقسماتها كيفكانالشعوبيونمنالشعراءيحاولون ـ ما أسعفتهم المحاولة ـ أن يمزجوا العربية بالكلمات الدخيلة ، مرة عن طريق التملح كصنيع « أبى نواس » وغيره في بعض شعره ، وأخـرى يكونون فيها من الجد على نحو يظهر في شعرهم ، ولا شك أن لهذا دلالته وايحاءه ، « وان لم يتحول الى ظاهرة عامة ، فقد كان يأتى على ألسنة الشعراء في الندوة ، وكثرتهم على الرغم من أصولهم الفارسية لم يتورطوا في شيء منه (١) .

وقد وقف « ابن قتيبة » الى جانب « الجاحظ » ، يضـــع « الشعوبية » على السفود ، ثم يسلط عليها منالحججوالبراهين ما يجعل مزاعمهم تتهافت وتتداعى أمام الحق والواقع المشاهد و « ابن قتيبة » في نهجه الذى اتخذ معهم في الحجاج عالم ثبت ، لا تجد فيه جموحا أو شططا وتعصبا ، فليس يعنيه من هـــذا الغبار الذى أثاروه بالشبه الحاقدة الا أن يجلى عن الحقيقةحتى تتكشف ، فيذكر :

ولم أ رفي هذه الشعوبية أرتح عداوة،ولا أشد تعصبا للعرب من السفلة والحشوة ، وأوباش النبط ، وأبناء أكبرة القرى.فأما أشرافهم في العجم ، وذوو الاخطار منهم ، وأهلالديانة،فيعرفون ما لهم وما عليهم ، ويرون الشرق ثابتا فيهم .

---

(١) تاريخ الادب العربى ـ العصر العباسي ١٤٣ .

وهو في هذه اللفتة قاض يتحرى النصفة ويذعن الحق،فليس «الشعوبيون» سواء كما قدمنا ولكنه لا يدع القضيةهكذا دون أن ينفذ الى مساريها ويسبر أغوارها ، فتراه يقول : ان قوما تحلوا بالاداب فجالسوا كبار رجال الدولة ، فلما تقربوا من السلطان وحظوا عنده بالمكانة والمنزلة داخلهم الزهو ، ولازمتهم الانفة ، وكانوا من ذلك ألوانا وأشكالا ، فمنهم من ألحق نفسه بأشراف العجم ، واعتزى الى ملوكهم ، ودخل من باب فسيح لا حجاب عليه ، ونسب واسع لا مدافع عنه ، ومنهم من أقام على خساسة يدافع عن لؤمه ،ويدعى الشرف للعجم كلها ليكون من ذوى الشرف، ويظهر بغض العرب يتنقصها ، ويستفرغ مجهوده في مثالبها ، واظهار مثالبها ، وتحريف الكلم في مناقبها ، وبلسانها نطق ، وبهمسها أنف ، وبأدابها تسلح عليها ، فاذ هو عرف خيرا ستره، وان ظهر حقره ، وان احتمل التأويلات صرفه الى أقبحها ، وان سمع سوءا نشره،وان لم يسمعه نفر عنه ، وان لم يجده تخرجه، فهو كما قال القائل :

ان يعلموا الخير يخفوه وان علموا
شرا أذيع ، وان لم يعلموا بهتموا

وكان (أبو عبيدة معمر بن المثنى) أعرف الناس بمثالب العرب ، وألهجهم بمثالب العرب (١) .

وربما وجد الشعوبيون الفرصة سانحة أمامهم للثلب والتجريح والازراء على العرب ، وذلك حين يعمدن الى أن يقفوا أمام عادات عرفت لهم ، يزمونهم بما تنطوى عليه أمثال تلك العادات من سفه يعير صاحبه بسببه ، وهم اذ يحاولون ذلك يعرضون من تلك العادات ما له أصداء قوية عنيفة على النفوس والمشاعر ، والشاعر « اسماعيل بن يسار النسائى » مولى « تميم

---

(١) رسائل البلغاء ٣٣٤ وما بعدها لمحمد كرد على .

ابن مرة » يقـول :

ما على رسم منزلى بالجناب
ولو أبان الغداة رجع الجـواب
واســألى ان جهلت عنا وعنكم
كيف كنا في سالف الاحقـاب
اذ نربى بناتنـــا وتدســـو
ن سفاها بناتكم في التراب (١)

فيرد عليه لتوه « أشعب » قائلا في تهكم :

صدقت والله يا أبا فايد ... أراد القـــوم بنـــاتهم لغير ما أردتموهن له ، قال : وما ذاك ؟

قال : دفن القوم بناتهم خوف العار ، وربيتموهن لننحكهن ، فضحك القوم ، وخجل « اسماعيل » حتى ود لو تسوخ به الارض وفي ذلك الرد المضحك شاهد على معارضة هذا الاتجاه ،ودفع لد..

واذا كان « الشعوبيون » قد جهدوا في تحقيـــق أغراضهم باصطناع الاساليب التى تضمن لهم نجـاح المسعى ، فانهم لم يدخروا وسعا كذلك في النظر الى التراث العربى بعين الريبـــة والشك ، فقد رأوا أن ما جاء على ألسنة الشعراء الجاهليين من شعر يشيد بالفرس ، ويختصهم بالاطراء والمدح ما كان ليبلغ تلك الصورة من الذيوع والشهرة لو لم يكن للفرس عليهم أيـد الطولى ، ولك أن تطاع مدائح (الاعشي) و « عدى بن زيد » ، و « لقيط بن يعمر » في مدح ملوك الفرس بعامة ، و « كسرى » بخاصة حتى تتثبت من أن الاشادة بهم تحمـل الطعن الصريح على العرب ....

ومن الامثلة الدالة على ذلك قول « أمية بن أبى الصلت »

---

(١) تاريخ الشعر السياسي للشايب ٣٣٤ . (دار الـكتب الـكبرى) .

في تهنئة (سيف بن ذى يزن) وقد استعاد ملك أبائه باليمن وطرد (الحبشة) منها :

لا يطلب الثأر الا كابن ذى يزن في البحر خيم للاعداء أحوالا

الى أن يقـــول :

فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا
في رأس غمدان دارا منك محلالا
تلك المكارم لا قعبان من لبـــن
شيبا بماء فعادا بعـد أبوالا

وقد قوبلت هذه الصورة بالمعارضة الشديدة من لدن بعض العلماء العرب ، منهم « المبرد » الذى راح يثبت أن هنـــاك من العرب من كان في مكانة (سيف بن ذى يزن) ، كما أن فيهم من توج ، والا ففيم قول شاعر الرى المكنى بأبى يزيد لعبـد الله بن طاهـــر :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا
في شاذمهر ودع غمدان لليمن
فأنت أولى بتاج الملك تلبسه
من هوذ بن عـلى وابن ذى يزن

غير أن « أبا عبيدة » كان يغض من مكانة (هوذة) مدعيا أنه لم يتوج «معدى» قط ، وانما كانت التيجان لليمن،فلما سأله (التوزى) عن « هوذة بن على الحنفى » قال : «انما كانتخرزات تنظم له » .

ويعقب « المبرد » على ذلك بما يبدد هذه المزاعم ، مستدلا على ذلك بما يلى :

(أ) مكاتبة النبى صلى الله عليه وسلم اياه على نحـــو ما كانت عليه مكاتبة الملوك .

(ب) مكانة (هوذة) عند (كسرى) ذاته ، حتى أنه كان يجير لطيمة كسرى في البحر بجنبات اليمامة (١) ٠

وفي الصورة المقابلة نرى شعراءهم لايفتأون يمجدون الفرس، ويذكرونهم حتى في أوقات البطالة والفراغ ، مما يؤكد أن الروح الفارسي استبد بهم ، وتسلط على أفكارهم ، ولعل في قول « أبى نواس » مؤشرا ذا دلالة قوية في الاستجابة لتأثير هـــذا الروح فيهم :

بنينا على كسرى سماء مدامة
جـــوانبها محفـــوفة بنجـــوم
فلو رد في كسرى بن ساسان روحه
اذن لاصـــطفانى دون كل نديم (٢)

ويفطن « المبرد » الى أن هذا التسلط الفارسي متمثـــلا في صورة « كسرى » وروحه لم يزايلهم حتى في ساعة الشراب التى يغيب فيها الوعى ، وهو معنى ان دلّ على شيء فانما يدلّ على مدى الفتنة الآسرة التى جذبتهم الى ساحتها ، على أن الدكتور (طه حسين) برى أن ذلك الاتجاه ليس اتجاها شعوبيا فحسب، بل كان أيضا عند (أبى نواس) مذهبا سياسيا ، فهو « يذم القديم ـ لا لانه قديم » بل لانه قديم ، ولانه عـــربى ، ويمدح الحديث ـ لا لانه حديث ـ بل لانه حديث ،ولانه فارسي ، فهو آذن مذهب تفضيل الفرس على العرب ، مذهب الشعوبية المشهور (٣)

---

(١) الكامل للمبرد ٢/٢٤ تحقيق الاستاذ محمد أبو الفضل، والسيد شحاته ط : نهضة مصر ١٩٥٦ ٠
وانظر كذلك مظاهر الشعوبية في الادب العربى ١٥٠ د٠نبيه حجاب ط : القاهرة ١٩٦١ ص ١٥٠ ٠
(٢) الكامل ٣/١٤٤ ٠
(٣) حديث الاربعاء ٢/٩٠ ط ١٢ ـ دار المعارف ٠

والذى يتأمل مسيرة « الشعوبية » ، ويتعقب ظاهرها خلال تلك المسيرة يكاد يلحظ معنى على جانب كبير من الاهمية ، وهو أن « الشعوبية » امتزجت بالزندقة امتزاجا بينا لا نغلو فيه اذا اعتبرنا احداهما من الاخرى توأما لها ، فيه كثـــير من سماته ومشابهه ، فا سر ذلك ؟ ووا دلالته ؟

يكن القول في شيء من التسامح والتجوز في مفهوم كلمـــة « الزندقة » باعتبارها تعم «جميعأنواع الالحاد أو المواقفالدينية التى لا ينظر اليها أهل الســـنة بارتياح (١) » بما يأتى :

ان « الزندقة » مأخوذة عن مصطلح ايرانى (الافستا) كتاب « زرادشت » داعيتهم ، كان يطلق على من يذهبـــون في تأويل نصوصه بما يبعده عن حرفيته ـ ومن ثم أطلق على دعوة «مانى» وأتباعه من الفرس ، ثم أخذ « مدلول الكلمة يتسع في العصـر العباسي ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس،واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل الحاد بالدين الحنيف وكل مجاهـــرة بالفسق والاثم ...

ومعروف أن جمهور الفرس قبل الاسلام كانوا مجوسا على دين « زرادشت » الذى ظهر في ديارهم حوالى منتصف القـــرن السابع قبل الميلاد ، وما وضعه لهم من تعاليم ... ثم ظهـــر عندهم في القرن الثالث الميـــلادى داع يسمى « مانى » مزج في تعاليمه بين الزرادشتية والنصرانية فأبقى من الاولى على عقيدة الهى النور والظلمة ، واستباحة الزواج بالبنات والاخوات :وأخذ من الثانية عقيدة التناسخ وتحريم ذبح الحيوان والطيور ، وأخذ من الثالثة الزهد والنسك وفرض على أصحابه صلوات وأدعيـــة كثيرة ، وفي أواخر القرن الخامس للميلاد يظهر في (ايران) داع

---

(١) ازنادقة ١٧٣ (فاجدا) نقلا عن (الجاحظ) ٣٠٤ د٠شارل بـــلات ٠

جديد هو « مزدك » وكان ثنويا يؤمن بالهى النور والظلمة وتقديس النار ، وقد مضي يدعو دعوة صارخة الى العكوف عـــلى اللذات والشهوات والامعان فيها ، وأحل النساء ، وأباح الاموال، جعلهما شركة للناس ، وكان له ـ كما كان لمانى ـ أتباع كثيرون (١) ٠

ومعلوم أن ذلك كله من مخططات « الشعوبية » التى تحرص ـ غايتها ـ على تقويض الاخلاق وزلزلة القيم ، واهتزاز العقائد، ولهذا كان طبيعيا أن تختلط الشعوبية بالزندقة وأن تنصـــهرا معا في بوتقة ، غير أن «الشعوبية» قد تسلك الى أهدافها مسالك متعددة وقد تغلف هذه المسالك أحيانا بما تضفيه عليها من ظاهر لا يمس الدين أو العقيدة في الشكل ، وان كان في فحواه معولا من معاول الهدم والعفاء ٠٠٠

فالحديث عن الجاهليين بوأد البنات ، والترنم بأمجـــاد الفرس وصولجانهم وإن كانت من مظاهر الشعوبية الا أنهـــا لا توهم المساس بالعقائد والاديان ٠٠٠

كان لزاما ـ والحالة هذه ـ أن يشيع المجون على ألسنتهم ، وأن يكونوا في المجتمع وباء يستشرى ، وداء عضـــالا يتحسس مخاطره وآثاره كل الاكياس المحافظين ، وما ظنك بأب يرى من العار أن يكون ابنه جرثومة فساد في المجتمع الذى يحويه ، فيشير اليه بأن في البساتين والخـــلاف فسحة أمامه ، حتى تكون أخفى وأستر لمـا يقارف من آثام وموبقات ، ونزل الابن (أبان بن عبد الحميد اللاحقى)على رغبة أبيه ، وأقام بناحيـــة (المعلى) ، وكتب اليه أبوه بعد مدة يبثه حنينه وشوقه ، فماذا تراه قائلا ؟ هاك رسالته ، ونفثته الشاعرة الى أبيه :

---

(١) تاريخ الادب العربى ـ العصر العباسي الاول ٧٩ وما بعـدها ، ويراجع : الفرق بين الفرق للبغدادى في المامه بالمزدكية وسواها ، واشاراته اللماحة في ذلك ٠

يا أبى لا ترث لى من غيبتـــى
أنا في خـــير ولهو ودعه
صرت من حبس دنا مطلقا
ومن الضيق الى كل ســـعه
بيت خيش ونبيذ سائغ
وحبال الباب منى مشرعه
ومغى في كل يوم مسمع
حاذق يطربنى أو مسمعه
وندامى كمصابيح الدجى
كلهم يأخذ كأسا مترعه
لا يبالى من لى في شربها
أبدا حتى يوارى مصرعه
وسخول خمسة أو ستة
فذا قلوا غعندى أربعـــه
وخـــواب هادرات هدرها
ودســـاتيج مـلأى مترعه
ومغن غـــرد يطـــربنى
فاذا شئت تغنيت معـــه

فكتب اليه أبوه (حمدان) أنشدتك الله يا بنى أن تدخل انبصرة وهذا حالك ، فان احتجت الينا لحقنا بك (١) ٠

- ٢ -

ومضت « الشعوبية » تتابع الخطى طولّ الدرب ، وهيـأ لها ذلك أن راح بعض فقهاء المسلمين يطلقون لافـــكارهم عنـــان

---

(١) الاوراق (للصولى) ٦٢ وما بعدها جمع هيوارث دن ٠

الاجتهاد ، وتمخض اجتهادهم وأسفر عن فتياهم أن بعض ألوان الانبذة حلال شربه وكانت هذه ثغرة مكنت للفساد أن ينتشر ، وللشعوبية أن تتستر وراء هذه الفتيا ...

واذا كان (النواسي) ـ والخمر رغبته ـ قد عرف أنها حراد واجتراً على الحرمة ، فعكف عليها ممسيا ومصبحا :

وان قالوا حرام قل حرام فان لذاذة العيش الحرام

فكيف بالشعوبيين بعد أن تراءت اليهم أخبار تلك الفتاوى لا شك أن ذلك يدعوهم الى مضاعفة الجهد والافتنان في تنفيذ مخططهم بكل ما أوتوا من قوة واستعداد ،وانك لتقرأ لابن الرومي قوله :

أباح العراقي النبيذ وشربه
وقال حرامان : المدامة والسكر
وقال الحجازي الشرابان واحد
فحل لنا من بين قوليهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما
وأشربها لا غارق الوازر الوزر (١)

فتعجب أن اهتبل الشعراء الفرصة ، كي يمكنوا للمجون أن تخفق رايته ...

ولم يكن غير الشعراء من أمثال ابن الرومي فيحملون على الاحكام حتى يحولوا لانفسهم شرب الخمر ، فقد كانت كئوس الخمر تصطك هنالك في الحياة بعامة ، وفي قصور الخلفاء بخاصة..

يقول « أبو حفص بن شاهين » : يخبر عن (ابن دريد) وهو من علما وأدبا :

---

(١) ديوان (ابن الرومي ٧٨) اختيار وتصنيف كامل كيلاني

كنا ندخل على « ابن دريد » فنستحى مما نرى من العيدان المعلقة والشراب ، وقد جاوز التسعين ، ومن شعره في الخمر قوله:

وحمراء قبل المزج صفراء بعده
أتت بين ثوبى نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرما فسلطوا
عليها مزاجا فاكتست لون عاشق (١)

ناهيك بقصور الخلفاء التى كانت تشهد الليالى الصاخبة، بكاسها وطاسها ....

وباجمال شديد لنا أن نقول أن الحياة أكانت عابثة لاهية ... وأن هذا العبث والمجنون لم يكن طابع القرن الثانى الهجرى بل امتد الى القرن الثالث كذلك ، مما أطاح بكثير من القيم، وكان مدعاة الى تدهور الاخلاق ، والاداب العامة وستكون تكأتنا في استقاء هذه الحقيقة أبياتا شعرية ، صورت الحياة خير تصوير، فكانت كافية عن العودة الى المظان والمصادر ...

هذا « على بن الجهم » الشاعر العباسي المعروف الذى توفي سنة (٢٤٩ هـ) يصرح بما ساد الحياة من انطلاقة وتبذل وارتكاس في الحضيض الاوهد ، فيقول :

نزلنا بباب الكرخ أطيب منزل
على محصنات من قيان ؛ لمفضل
فلا بن سريج والغريض ومعبد
بدائع في أسماعنا لم تبدل
أوانس ما للضيف منهن حشمة
ولا ربهن بالجليل المبجل

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/٢٤١ ط مصورة عن ط • دار الكتب •

يسر اذا ما الضيف قل حياؤه
ويغفـــل عنه وهو غير مغفل

أرأيت الى أى مدىكان الاسفاف ، والىأيةغايةبلغت المجانة ، .. وليت الامر وقف عند هـــذا الحد ، بل ترى « ابن الجهم » يسترسل في تصوير حالة الضيف اذا حاول أن يصـــطنع الوقار ويتكلفه ، وكيف يواجه بالسخرية المرة :

ويكثـــر من ذم الوقار وأهله اذا الضيف لم يأنس ولم يتبذل

حتى اذا لعبت حميا الخمر برأسه بعد مأكل أصـــاب منه ، وملبس يتزيا به جريا على الالف المألوس ، عندهم في مثل هـذه الحالة يمضي (ابن الجهم) في اللمسة الاخيرة من تصويره قائلا :

ولا يدفـع الايدى المريبـــة غيره
اذا نال حظا من لبـــوس ومأكل
ويطرق اطراق الشجاع مهابة
ليطلق طرف الناظر المتـــأمل
أشر بيد وأغمز بطـرف ولا تخف
رقيبا اذا ما كنت غـير مبجل
وأعرض عنالمصباح والهج بمثله
فان خمد المصباح فادن وقبل
وسل غير ممنوع،وقل غير مسكت
ونم غير مذعور وقم غير معجل

كل هذه رغائب هينة ، ولذاذات ميسورة ، يســتطيع أن يحظى بها هؤلاء الذين خبروا تلك البيوت ، وعرفوا السبيل الى غشيانها وارتيادها :

لك البيت ما دامت هداياك جمة وكنت مليا بالنبيذ المعسل(١)

---

(١) اتجاهات الشعر العربى في القرن الثانى الهجرى ٤٥٦ وما يليها د٠ محمد مصطفى هدارة ـ دار المعارف ١٩٦٣ ٠

وقد أصاب (الجاحظ) شاكلةالحق حين ؛متعنا قلمه الساحر بعرض شريحة من شرائح المجتمع على عهده تتبدى في «القيان» اللائى تحدث عنهن «ابن الجهم» ، وهى شريحة تطل منافذتها أنماط لما كان يجرى به العصر ، ويموج ...

يقول من رسالته في « القيان » :

وكيف تسلم القينة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكونعفيفة، وانما تكتسب الاهواء وتتعلم الالسن والاخلاق بالمنشأة ، وهى انما تنشأ من لدن مولدها الى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والاخانيث ، وبين الخلعاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه الى ثقة ولا دين ولا صيانة روءة ، وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعدا ، بنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة والعشقوالصبوة، والشوق والغلمة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها منكبة عليها تأخذ من المطارحين الذين طرحتهم كلهتجميش،واتشادهم مراودة ، وهى مضطرة الى ذلك في صناعتها لانها ان جفتها تفلتت ، وان أهملتها نقصت ، وان لم تستفد منها وقفت ، وكل واقف فالى نقصان أقرب ، وانما فرق ما بين الصناعات وبين من لا يحسنها التزيد فيها ، والمواظبة عليها (١) .

وجملة القول أن (الشعوبية) تركت أصداء قوية في أدب هذه الفترة يمكن حصرها فيما يلى :

أولا : في مجال الشعر :

(١) الفخر بالاعاجم :

ويتجسد هذا المعنى بوضوحلدى الشعراءالشعوبيين ،الذين

---

(١) البيان والتبيين وأهم رسائل الجاحظ٤٤تعليقد٠جميل جبر (ط : ١٩٥٦) المطبعة الكاثوليكية ٠

مضوا يرفعون عقيرتهم بالاشادة والاعتزاز بالفرس ، ومن هؤلاء الشاعر « أبو يعقوب الخريمى » (١) القائل :

انى امرؤ من سراة الصند آلبسنى عرق الاعاجم جلدا طيب الخبر

و « أبو اسحق المتوكلى » شاعر « المتوكل » ونديمه ، ذلك الذى أطلق لسانه في تمجيد قومه ، والازراء على العرب بعامة ، والهاشميين بخاصة ، ومن ذلك قوله :

أنا ابن الاكارم من نسل جم
وحائز ارث ملوك العجم
ومحيى الذى باد من عزهم
وعفى عليه طوال القدم
وطالب أوتارهم جهرة
فمن نام عن حقهم لم أنم

الى أن يقول :

فقل لبنى هاشم أجمعين
هلموا الى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوة بالرماح
طعنا وضربا بسيف خذم
وأولاكم الملك آباؤنا
فما أن وفيتم بشكر النعم
فعودوا الى أرضكم بالحجاز
لاكل الضباب ورعى الغنم
فانى سأعلو سرير الملوك
بحد الحسام وحرف القلم (١)

---

(١) أنظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢/٨٥٣ تحقيق وشرح الاستاذ أحمد محمد شاكر .

هذا فضلا عمن ذكرنا من الشعراء من أمثال (بشار بن برد) وســـواه ٠

(٢) الموازنة بين ما للعجم من مجادة ورفعة ، وبين ما للعرب من صفات تعلن عن ضآلتهم حيال العجم كالجهـــل ، والفقـــر والفوضي ، وخواء ماضيهم من كل ما يتصل بالكرامة والاعتداد٠

وقد قطع (أبو نواس) شوطا بعيد المدى في تلك الموازنة ، ودونك هذا المثال والنمط من شعره :

اذا ما تيميمى أتاك مفاخـــــرا
فقل : عد عن ذا كيف أكلك للضب
تفاخـــــر أبناء الملوك ســـفاهة
وبولك يجرى فوق ساقك والكعب
اذا ابتدر الناس الفعال فخذ عصـــا
ودعدع بمعزى يابن طالعة الـذرب
فنحن ملكنـــا الارض شرقا ومغربا
وشيخك ماء في الترائب والصلب (١)

وحسبنا هذا الانموذج ٠٠

(٣) التبرؤ من العرب ، وتعنيف من ينتمى اليهم بالولاء ٠٠

ومن الطبيعى أن هذه النزعة الشعوبية أخذت في الظهـور ، بعد أن صـــــارت مقاليد الامر بأيديهم ، وكان ذلك رد فعـــل قوى لمـا جرى من حرص على العروبة في بداية العصر العباسي من الموالى ، حتى أن (أبا مسلم الخراسانى : يزعم لنفسه نسبا عربيا ، فيدعى أنه من نسل (سليط بن عبد الله بن عباس) (٢)

---

(١) ديوان (أبى نواس) ٩٤ (المكتبة التجارية) ٠
(٢) تاريخ الطبرى ٤٩١/٧ ط : تحقيق محمد أبو الفضـــل ابراهيم ٠

بل يبلغ الامر أبعد من هذا حين يناظر (اسحق الموصلى) « ابن جامع » بحضرة « الرشيد » ، ويسبه « ابن جامع » فيذهب الى « حازم بن خزيمة » العربى فيتولاه ٠

وفي هذا يقول :

اذا كانت الاحرار أصلى ومنصبى
ودافع ضيمى خازم وابن خـازم
عطست بأنف شامخ وتناولت
يداى الثريا قاعدا غير قائم (١)

وما لبثت هذه المرحلة أن مضت ، كان رد الفعل بعدها في نفوس الموالى قويا وعارما ، وهذا « أبو نواس » يقول في « الهيثم بن عـدى » :

الحمد لله هذا أعجب العجب
الهيثم بن عدى صار في العرب
يا هيثم بن عدى لست للعرب
ولست من طيىء الا على شغب
اذا نسبت عديا في بنى ثعل
فقدم الدال قبل العين في النسب
الهيثم بن عـــدى في تلونه
في كل يوم له رحلٌ على خشب
فلا يزال أخا حل ومرتحـــلٍ
الى الموالى، وأحيانا الى العرب (٢)

واذا عبر « الرقاشي » بانتسابه ألفيناه يقول ٠

قلت يوما للـــــرقاشي وقد سب الموالى

---

(١) الاغانى ٣٧٨/٥ (دار الكتب) ٠
(٢) معجم الادباء ٣٠٧/١٩ ٠

والذى انحاك عن أصـــلك من عم وخال
قال لى : قد كنت مولى زمنا ثم بدالى
أنا بالبصرة مولى عـربى بالجبـــال
أنا حقـا أدعيهم لسؤالى وهزالى (١)

ثانيـا : في النثر :

وكما كان الشعر قافة اعلامية تحرص على بث هذه الافكار بوسيلة أو بأخرى ، اضطلع النثر كذلك بتلك المهمة ، وربما كان النثر ميدانا فسيحا صالحا لتحقيق أغراضهم التى تفانوا دونها ..

والمتأمل في أدب هذا العصر يلحظ أن ثمة أساليب انتهجها الشعوبيون في النثر ، نلخصها فيما يأتى :

(١) وضع الرسائل وتأليف الكتب في مناقب العجم ومثالب العـرب :

ومن النوع الاول كتاب « انتصاف العجم من العـــرب » ، و « فضل العجم على العرب » وكلا الكتابين (لسعيد البختكال) وكان شاعرا ، عذب الالفاظ ويدعى أنه من أبناء ملوك الفرس (٢) ، وكذلك كتاب « فضائل الفرس » لابى عبيدة معمر بن المثنى (٣)

ومن النوع الثانى : كتاب « المثالب الصـــغيرة » وكتـــاب « المثالب الكبير » وكتاب « مثالب ربيعة » وثلاثتها من وضـــع « الهيثم بن عدى »

وممن وضع الكتب في مثالب العرب كذلك «سهل بن هارون» فقد ألف كتابا يسمى « لصوص العرب » على أن من أحفل كتب

---

(١) ديوان أبى نواس ٥٧١ .
(٢) الفهرست لابن النديم ١٧٩ نشر دار المعرفة ـ بيروت .
(٣) ذاته ١٨٠ .

الشعوبية كتب « ابن المقفع » ، ومثل « ابن المقفع » كاتب ذو مقدرة وضلاعة ، يتوخى فيما يريد السبل المحكمة التى تبلغه غرضه ، وما كتابه « كليلة ودمنة » الا دعوة صارخة لتقويض النظام الذى أقامه العباسيون ، والتمرد عليهم في أسلوب رامز ، ولم يطأ أن يفصح فيه عن الغرض المباشر ، كما يتضح ذلك من تقديمه لكتابه ، اذ يقول :

ينبغى للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم الى أربعة أغراض :

١ ـ أحدها : ما قصد فيه الى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ، ليسارع الى قراءته أهل الهزل من الشبان .

٢ ـ والثانى اظهار خيالات الحيوان بصنوف الاصباغ والالوان ، ليكون أنسا للقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في تلك الصور .

٣ ـ والثالث : أن يكون على هذه الصورة ، فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل ، فيخلق على مرور الايام ،لينتفع بذلك المصور والناسخ أبدا ..

٤ ـ والغرض الرابع : وهو الاقصي ، وذلك مخصوص بالفيلسوف (١) .

واذا جرى في كتابه (كليلة ودمنة) على هذا النحو الشعوبى المغلف بالرمز فقد جاء كتابه (رسالة الصحابة) صرخة شعوبية حادة ، ودعوة صريحة الى صبغ المجتمع العربى الاسلامى بالصبغة الفارسية ، وتأمل قوله في تلك الرسالة يتولى شرح حال «الجند»:

دعا « المنصور » والدولة ناشئة ، وأعداؤها كثر ، والبلاد

---

(١) كليلة ودمنة ٤٦ ط (الاميرية ١٩١٢) .

عريضة واسعة ، تحتاج الى جند يحتفظون أمنها ، يه سكون على السلطان أطرافها الى اتخاذ أهل « خراسان » ـ وهم قوم الكتاب وقبيله ـ وحدهم سندا وجندا لما امتازوا به من مميزات ومؤهلات ليست لغيرهم منجنود الارض ، وان جندا منهذا الطراز لتجب رعاية حقوقهم ، والعناية بشئونهم ، فانهم جند لم يدرك مثلهم في الاسلام ، وفيهم منعة ، بها بتم فضلهم ان شاء الله ... أما هم فأهل بصر بالطاعة ، وفضل عند الناس ، وعفاف نفوس فروج ، وكف عن الفساد ودل للولاة فهذه حال لا نعلمها عند غيرهم (١) .

(٢) وضع الاقاصيص المغرضة في أسلوب طريف جذاب لشرح الابيات والامثال :

ومن ذلك ما رواه « الهيثم بن عدى » في مسامراته للسفاح في قصة ضافية ، قد تكون من وضعه أو وضع الشعوبية ، وكتاب « الفهرست لابن النديم » يحكى بعض تلك الاقاصيص في ثلب العرب قبيلة قبيلة ، وكذلك كتاب (مروج الذهب) للمسعودى.

٣ ـ تشويه الشعر العربى بالزراية على أهل العلم والرواة من العرب ، والاشادة بنظرائهم من الاعاجم ، ويروى (الاغانى) أن (اسحاق الموصلى) كان يحلو له أن يشوه سمعة «الاصمعى» في حضرة « الرشيد » ، و « الفضل بن الربيع » ، وذلك بتسميته « القريدا بن القريدة » ، في حين أنه كان يعمل بشتى الوسائل على أن يرفع من شأن (أبى عبيدة) الفارسي ... على نحو ما جاء عنه في قوله :

عليك أبا عبيدة فاصطنعه
فان العلم عند أبى عبيده

---

(١) رسائل البلغاء (محمد كردعلى) ١٢١ .

وقـــدمه وآثـــره عليـــه

ودع عنك القريدا بن القريده (١)

على أن تشويه تراثنا الشعرى كانوا يصطنعون في سبيله وسائل قد تخفى على كثير من الناس ، وذلك كالخلط المقصود تارة ، أو نسبة الشعر الى غير قائله تارة أخرى ، على نحو مافعل « أبو عبيدة » في نسبة الابيات الاتية « للعرندس الكلابى » في مدح « العلويين » :

هينون لينون أيسار ذوو كـــرم
ســواس مكرمة أبنـاء أيسـار
ان يسألوا الخير يعطوه وان خيروا
في الجهد أدرك منهم طيب أخبار
من تلق منهم تقل : لاقيت سـيدهم
مثل النجوم التى يسر ى بها السارى

فأنكر « الاصمعى » ذلك قائلا : مجال أن يمدح كلابى غنويا لما بينهما من العداوة (٢) .

ولا مراء بعد ذلك أن « الشعوبيين » أفرغـوا كل أفكارهم ورؤاهم في ميدان النثر حيث كان « أكثر خطرا ، وأبعد أثرا ، وأن الفـرق بينه وبين الشعر في هـذا الصدد هو الفـرق الدائم بين أسلوبين : الاسلوب المباشر ، والاسلوب غير المباشر في الدعوت ، ذلك أن الشعراء الشعوبيين راحوا يعلنون عن أهدافهم وأغراضهم في شيء غير قليل من الاندفاع والرعونة والصياح ، بحيث يرغمون من ليس له رغبة أو قدرة على الانتباه أن يلتفت اليهم ويتنبه ،

---

(١) الاغانى ٣٨٦/٥ (دار الكتب) .
(٢) أمالى القالى ٢٨٧/١ تحقيق محمدعبدالجواد الاصمعى (الهيئة العامة للكتاب) .

في حين أخذ الناثرون من الادباء الشعوبيين يدبون الى ما يريدون دبيبا ، ويسامكون الى ذلك الدروب الملتوية الخفية ، فلا يضبط سالكها الا بشيء من الذكاء ، وقدر من قوة الملاحظة كبير » (١) ٠

وهكذا كان مد الشعوبية في الادب العـربى ، ينداح ويتأكد بتراخى قبضة الحلفاء على الحكم واستسلامهم لتلك العنـــاصر التى تحفزت للفرص السانحة ، متذرعة بالاســـــلحة الفتاكة ، والنعرة العرقية ، والدهاء الذى أخذ سبيله الى السياسة والفكر حتى بلغ هدفه ، وحقق مأربه ٠٠٠٠

---

(١) التيارات الفكرية الوافدة في العصر العبـــاسي الاول وصداها في أدب العصر د٠ صالح آم (رســـــالة دكتوراه ؛ ١٩٢ (مكتبة كلية اللغة العربية) بالمنصورة ٠